اصول البلاغة عند العرب

للاب خليل اده اليسوعي (تابع)

بيّنا في عدد سابق الفرق الاساسي الفاصل بين اصول البلاغة عند المتأخرين من العرب واصولها عند الفرنج وان هؤلاء يعتبرون قبل كل شيء الموضوعات نفسها ليمثلوها خير تمثيل واولئك ينظرون الى المعاني المجرّدة ليعبّروا عنها افصح تعبير. وقد ادّى هذا الاختلاف في المبدإ الى فروق اخرى نذكر هنا اهمّها

لمّا كانت مادة البلاغة عند الفرنج الموضوعات نفسها وكانت الموضوعات لا نهاية لها اصبح مجال الصناعة البيانية عندهم متّسعاً جدًّا لانهُ يتناول كل الاشياء وكل الحقائق. حتى العالم يمكن ادخالها في دائرة البلاغة اذا عرف الكاتب التصرف بها (١

ثم ان الاشياء متنوعة جدًّا فلزم ان تكون رسومها وتماثيلها الفنيّة كثيرة الانواع ايضاً ولما كانت الصناعة الفرنجية تتوخى ايضاً تلك الرسوم المتنوعة افضى بها الامر الى تعداد فنونها ووضع قوانين مختصة بكل منها ففرقت بين الرواية والمثل والوصف والخطبة والمقالة العلميّة والتاريخ والرسالة والمأساة والهزاة والملحمة وهلمّ جرًّا

امّا المتأخرون من البيانيّين عندنا فعلى خلاف ذلك لانهم لمّا جعلوا مادّة فن البيان المعاني المجرّدة فقط وغايته حسن التعبير عنها حصروه وضيّقوا مجاله لان المعاني المجرّدة كلّيات هي من طبعها قليلة. مثال ذلك المعاني الشائعة في المديح او الهجاء او الرثاء فان احببتَ ان تعدّها وجدتها لا تربي على عدد الانامل بكثير. وما يزيد في حصرها ايضاً ان المعاني المجرّدة لا تصلح كلها للبروز في الصورة البيانية التي جعلوها غاية الصناعة. كيف يمكنك مثلاً انشاء كتاب في التاريخ يكون لهُ صحة البلاغة المقصودة من الصناعة كما عرّفها البيانيون ان كنت لا تنزع الّا الى استعادة تستنبطها او تشبيه تنسّقهُ او شكل بديعي تبتكره؟ او كيف يمكنك اجلاء المحاسن الطبيعيّة التي تفيدنا

---

(١) وقد برز في هذا الفنّ كثيرون منهم ريبان فان الكل يشهدون الآن ان فضل هذا الكاتب ليس في سمو مداركه وصدق معارفه العلميّة بل في بديع الصورة البيانية التي ابرز فيها الاكتشافات العلميّة

عنها العلوم ان كان هنك التكلُّم بالمجاز والكناية وما شاكلها من انواع البيان او البديع حين يكون استعمال المعاني الحقيقيَّة من شروط الوضوح والتدقيق ؟ فإمَّا ان تجتنب هذه المواضيع ولا تتعرض لها البتة وإمَّا اذا بحثت فيها ووفَّيتها حقها من البيان والتدقيق ان لا تعتبرها من المؤلفات البيانيَّة . ولا مخرج لك الَّا من احد هذين البابين . ولذلك ترى البيانيين قد حصروا البلاغة في بعض ابواب تصلح لاستعمال البديع كالمدح والهجاء والرثاء والفخر وما شاكلها ولم يجعلوا منها فنّ التاريخ . وكذلك لم يعدّدوا فنون البلاغة طبقًا لمبدئهم الاساسي . لان تميز الفنون وتبويبها لا ندحة عنهما اذا كان الغرض من الصناعة البيانيَّة تمثيل الاشياء على تنوع اصنافها . وامَّا اذا كان الغرض منها التعبير عن المعاني المجرّدة فلا يبقى للتفصيل محل . لان ايراد المعنى الواحد باساليب بيانية وبديعية مشترك بين كل الفنون البيانيَّة الممكنة . فلا فرق مثلًا بين الاستعارة في مقام المدح وبينها في مقام الهجاء . فان اختلفت مادَّتها فلا تختلف صورتها وشروط حسنها وهو الوجه المعوَّل عليه في وضع الاصول . فترى اذًا ان تصور البيانيين للبلاغة اوجب عليهم حصر اصولها واغناهم عن تبويب فنونها

*

الاصل الثاني الذي ذكرناه وقلنا بوجوب مراعاته في الصنعة هو طريقة تصوير الموضوعات في نفس الصانع (l'artiste) لان الاشياء لا تخرج في الصنعة كما هي في الحقيقة بل كما هي في نفس المؤلف . فالنفس كمرآة تنعكس فيها الانوار المنبثة من الموضوعات فتمثلها فيها . فاذا كشفت النفسُ القناع عن تلك الصورة وابرزتها للعيان ادرك المشاهد بواسطتها حقيقة الاشياء الممثَّلة . الَّا ان الفرق عظيم بين المرآة الماديَّة والنفس البشريَّة وبين انطباع الاشياء في تلك وتمثلها في هذه . فان الاشياء الخارجيَّة تنطبع في المرآة المادية كما هي بشرط ان تكون في دائرتها فلا تختلف المعرفة الناشئة من معاينة الاشياء رأسًا والمعرفة الحاصلة من مشاهدة صورتها . وامَّا تمثُّل الموضوعات في النفس البشريَّة فليس كذلك فانهُ كثيرًا ما يختلف باختلاف قوى النفس والعوامل الطارئة عليها والاغراض التي تقصدها

اما اختلافها باختلاف قوى النفس فظاهر . فليس البشر كلهم سواء في قوَّة النظر

والمعاينة. فهذا يرى في مشاهدات الاحوال ما لا يراه ذاك. يجد المصور البارع في ابسط الاشياء عالماً لا يفطن له من ليس له المام بهذا الفنّ وكذا قل من الشاعر والكاتب. كان الشاعر الفرنسوي الشهير لافونتين (La Fontaine) يقضي ساعات طوالاً غائصاً في تأمل حركات النمل مفتوناً بما يراه من عجائبها بينما الفلاح الذي يراها يومياً لا يلتفت اليها طرفة عين اذ لا يرى فيها ما يستحق الالتفات. وذلك لان دقّة النظر ولطف الحسّ ورقّة الشعور في الصانع تمدّه لادراك ما لا يدركهُ غيره كما ان حدّة البصر تكشف للناظر ما يخفى على من لم يُرزقها

ثم ان العوامل العرضية الطارئة على النفس تغيّر اوجه انفعالاتها وبالتالي صور الاشياء التي تنطبع على صفحاتها فرب منظر واحد يثير الفرح في قلب انسان والحزن في قلب غيره. بل ربّما اثار الحزن تارةً والفرح اخرى في قلب الرجل الواحد كما نختبرهُ يومياً. فالفرح يزداد فرحاً والحزين حزناً امام مشهد طبيعي جميل كأن ذاك يرى من الطبيعة وقد زهت محاسنها صديقاً يشاركه في سروره وهذا يرى منها عدواً يشمت من مصابه. وعليه اصابت فارعة اخت الوليد بن طريف اذ اقبلت على الشجر تشكو نضارته حين أُصيب باخيها:

ايا شجرَ الخابور مالكَ مورقاً كأنّك لم تجزع على ابن طريف

وليس الامر كذلك في الحقيقة كما لا يخفى. الّا أننا من طبعنا ننسب الى المخلوقات في حركاتها وسكناتها ما يطابق عواطفنا. وان هذا الميل فينا يغيّر رسم الموضوعات في النفس. وكذا قل عن الغاية التي يقصدها الصانع في صنعته فانها تغيّر وجهة الصورة التي تطبعها الامور في نفسه. هذا رجلٌ متهم بجناية فان خصمه وحاميه ينظران الى التهمة ذاتها ولكن شتان بين نظر هذا ونظر ذاك. هذا ينظر الى الحوادث لينفي منها ما يؤثم صاحبه وذاك ليطلب منها ما يوجب الحكم والقضاء عليه. فترى مما قلنا ان الاشياء ان كان لها وقع في النفوس فللنفوس عليها تأثير وردّ فعل يغيّر تمثيل الموضوعات فلا بدّ من استلفات خواطر الكتّاب الى ذلك ليقفوا عليه ويجروا في مؤلفاتهم على احكامه. وان الاصول العربيّة خلوٌ من ذلك والسبب واحد وهو ان هذه الاعتبارات هي عندهم مما وراء الصناعة اذ الصناعة لا تهتم الّا بابراز المعاني المصوّرة للاشياء بعد تولّدها في الذهن بقالب البيان والالفاظ

وهناك مسألة اخرى مهمة جداً نشأت ايضاً عن ضروب التمثيل للموضوعات وطرقها. قلنا ان العوامل الطارئة على النفس والاغراض التي تتوخاها تؤثر في تمثيل الاشياء ذواتاً كانت ام احوالاً. أفليس ذاك نقصاً وخللاً؟ أليس حسن الصنعة قائماً بتمثيل الموضوعات تمثيلاً كاملاً كتمثيل المحسوسات بالفوتوغرافية؟ تلك مسألة اساسية في الفنون وقد تعددت المذاهب في طرق حلها. فقال قوم ان كمال الصنعة في محاكاة الطبيعة بكل ما فيها. وذهب اخرون الى ان المحاكاة ينبغي ان تقتصر على اهم ما في الموضوعات واغفال الباقي وان انتقاء ما يحسن تمثياله من اول شروط الصناعة. وهو مذهب اليونان وكل من ينتمي اليهم وهو المذهب الصحيح اتبعه اصحاب الذوق السليم في كل عصر وقطر. ولكن اصحابه يتفرعون ايضاً. فريق منهم يستحسن محاكاة الطبيعة كما هي دون زيادة عليها ولا نقصان واخر يرى وجوب تحسين الطبيعة واختيار اجود ما يكون في كل جنس وصنف. وعليه اذا وصفوا شخصاً او امراً او حالاً زادوا في الوصف ما يجتمع الموصوف من غير ان يخرجهُ من حيّز الممكن. واحبّ بعضهم اطلاق العنان لمخيلتهم ورأوا ان الصنعة الجيدة في تمثيل كل ما عنّ لهم وراق في عينهم. وربّما ذهب اخرون الى اعتبار الموضوعات كرموز تدلّ على معانٍ خفيّة وكالسنة ناطقة تعبّر عن اسرار سامية لا يدركها سوى الشاعر فاجتهدوا في تصويرها لا لذاتها بل لبيان مدلولاتها

ولم نذكر هذه المذاهب لأننا نريد تمام وصفها بل لننبه القارئ الشرقي الذي ليس لهُ علمٌ كافٍ بآداب الفرنج على ما عندهم من المباحث الخطيرة في العلوم البيانية. وإن هذه الابحاث التي من شأنها تعيين النسبة الموجودة بين الاشياء وصورها النفسانية لا وجود لها عند المتأخرين من بياني العرب ولا عجب لانهم حصروا فن البلاغة في حسن التصوير للمعاني لا للاشياء مع فصاحة التعبير عنها فلا يبقى بين البيان المصوّر واللسان المعبّر محلٌ لتحقيق النسبة بين الاشياء والمعاني

ثم بعد ما يتصور الصانع موضوعه في الذهن يحتاج اذا اراد ابرازه في قالب الكلام الى تقسيمه وتجزئته وتنظيم تلك الاقسام والنظر في علاقاتها ونسبها وايفاء كل منها حقها فيقدّم ما يجب تقديمه ويؤخر ما يجب تأخيره ويطنب او يوجز ويعرّض او يصرّح او يكني الى ما شاكل ذلك مما يشير اليه الذوق السليم. ولا يتهيأ ذلك للكاتب

او الخطيب الّا بعد العناء وذلك لان العقل على بساطة جوهره وروحانيته يدرك الامور بطريقة تناسب طبيعته . فربّما اكتفى بلمحة حتى يرى كل ما في موضوع فهمه . ولكنهُ اذا اراد اخراجه الى حيّز المحسوسات وتكوينه في جسم هيولي من الخيال والالفاظ اضطرّ الى تفصيل مرئيّاته وتحديدها وتمييزها ومراعاة انسابها لان الاشياء المادّيّة مجزأة لا يمكن وصفها دون وصف اجزائها . وهنـاك التعب وشقّ النفس لا يقدّره الّا من عاناه وقد شبهوه باوجاع المخاض . فالتخفيف وطأته على الصـانع وضع الفرنج في كتب البلاغة اصولًا هي مفيـدة جدًّا بل ضروريّة لتخريج الاحداث في اول امرهم وان كان يمكنهم الاستغناء عنها بعد طول الارتياض ومزاولة فن التأليف . امّا عند المتأخرين من علماء البيان العربي فقد أهملت ولا عجب لان الفنّ عندهم لا يبدأ دوره الّا بعد الذي ذكرناه من التفصيـل والتنسيق اعني عند ما يجب التعبير عن المعاني المصوّرة لأجزاء الموضوعات واقسامها المحدودة . فترى مما سبق انّ فنّ التعبير اخر فصـل من فصول ثلاثة تدور عليها الصنعة الفنية وانّ المتأخرين من علماء البيان عند العرب اجتزأوا به واعتنوا بوضع اصوله ضاربين صفحًا عن الفصلين الاولين وان كانا ارفع مكانًا منهُ واوعر مسلكًا

*

بيّنّا موضوع الصناعة عند العرب وحدّدنا دائرتهـا على مذهب السكاكي ومَن شايعه الى ايّامنا كما فهمناه من مطالعة مؤلفاتهم فيبقى علينا ان نبدي ما نراه في هذه الطريقة المدرسية لان غايتنا من هذه المقالة عمليّـة وهي البحث ان كانت الاصول البيانيّة القديمة كافية وافية باغراض الادب في عصر انقلبت فيه احوال المدنيّة والحضارة التي كانت الصناعة القديمة صورتها ولسان حالها

واول ما يتحتّم علينا النظر فيه المبدأ الذي اتخذه البيانيون اساسًا لصناعتهم . فهل يحسن بارباب البيان ان يجعلوا محور قوانينهم المعـاني المجردة . بل هل صدقوا النظر لمّا ظنوا ان البلاغة كلها انما هي « قلب مفكر وبيان مصوّر ولسـان معبر » ؟ هل يمكننا ان نستصوب تصورهم للبلاغة وللدور الذي عيّنوه لها لمّا حصروه في كسو المعاني المجردة وشاحًا خياليًّا او سبكها في قالب حسي ؟ لا لعمري وسبب ذلك ظاهر بعـد الذي قدمناه من شروط الصناعة الحقيقيّة . لان المعاني بوجه الاجمال انّما هي دلائل الاشياء

فكل فائدتها صادرة عن علاقاتها مع مدلولاتها وحسن تصويرها لها. والحال ان المعاني المجردة المنتزعة عن الذوات لا تفيد من الاشياء سوى احوال كليَّة تنطبق على كل افراد اجناسها وانواعها لا تختص بواحد دون غيره. فاذا اكتفى معلم البيان بمعالجة هذه الكليَّات دون الموضوعات افسد عقل الولد لانهُ لا يريه الاشياء الَّا بواسطة صور ناقصة. فتقتصر معرفة الولد على بعض الاوجه يظنها كاملة فيحكم بموجبها فيكون حكمه جزافاً. وبعبارة اخرى: من اقتصر في معارفه على تحصيل المعاني الكليَّة عاش في عالم وهميّ خيالي لان الكليات لا حقيقة لها في عالم الوجود. ومن ثمَّ فاتته فوائد لا تحصى ولاسيما عادة الاعتبار والمعاينة التي هي اساس العلوم والمعارف العصريَّة كلها. ولا شك في ان القرَّاء اختبروا غير مرَّة صحة قولنا. فمن منهم لم يلاقِ متأدبين على المبادئ القديمة يتقلبون بين احوالنا الحاضرة كالحيارى لا يفهمون منها شيئاً ولا يدرون كيف يتصرفون فيها وليس ذلك الَّا لانهم اجترأوا بالمعاني المودعة في بطون الكتب والدفاتر وكلها ترتقي الى الف سنة على الاقل وجعلوا همَّهم الوحيد وشغلهم الشاغل نظمها في كلام عذب ثملوا من حلاوته فذهلوا عن المشاهدات وحقائقها. أليس عادة المولدين من وصف الدمن والطلول التي لم يعرفوها الَّا من مطالعة الشعراء المتقدمين من نتائج هذه الطريقة؟ فلو عرفوا ان الصناعة الحسنة انما تكون في وصف الحقيقة وان اساسها الاعتبار صدق النظر لضحكوا من انفسهم وعرفوا بطلان ارصافهم

يظن كثيرون ان علم البيان انما غايته اتحاف الطالب قوالب يسبك فيها افكاره عند الحاجة. ذاك لعمري وهم يبخس صناعة البلاغة حقها ورفيع مقامها لانها تصبح كآلة فارغة لا خير فيها. انما الصناعة البيانيَّة صناعة شريفة تهذب كل قوى النفس وتمام الانسان حسن تصوير الاشياء ولاسيما اخلاقه وانفعالاته ووجداناته ونسبها مع العالم الظاهر والعالم الخفي. ولذلك تقتضي معرفة الاخلاق فضلاً عن الالمام بباقي المعارف ومن هذا يتضح لك ان الاقتصار على المعاني المجردة لا يجديك النفع الذي يحق لك ان تجتنيه من الأدب

ثم حصر البلاغة في التعبير يحرم الطالب فائدة عظيمة يجدها في الاصول الفرنجيَّة اريد بها حسن التنسيق واجادة النظام والترتيب في سياق الافكار والعواطف. لا يجهل احد ان الرومان ملكوا العالم بقوَّة النظام الذي جعلوه في كل فروع الهيئة الاجتماعيَّة

من جندية ومالية وادارة وعدلية فمكنهم من قهر العالم والتغلب عليه . وما كانت تلك القوّة العجيبة في اعمالهم الّا لكونها في نفوسهم ولم تبلغ تلك الدرجة العليا من النفاذ الّا لانّهم روّضوا انفسهم وعزّزوا فيها الملكة الغريزيّة التي كان اودعها فيها الخالق . ولن خير الوسائل الى بلوغ هذه الغاية ان لم اقل الوسيلة الوحيدة هي تمويد عقول الناشئة لزوم النظام والترتيب في افكارهم . فاذا صحّ ذلك تحقّقتَ بلا شك انّ الكتب المدرسيّة العربيّة في البلاغة عاجزة عن بلوغ هذه الغاية الشريفة فهي اذًا ناقصة من هذا القبيل

اخيرًا حصر البلاغة في فن التعبير اعظم مدعاة للتصنّع والتكلف واشدّ اسباب الانحطاط للآداب العربيّة . والبرهان على ذلك واضح لان المعاني كما قلنا وكما شهد كثيرون من البيانيين قليلة فلا يمكن التصرف بها الى ما شاء الله فان لذلك حدًّا معلومًا وغورًا قريبًا . نعم انّ كتّاب العرب بعّدوا هذا الحد وغاصوا الميدان الى غاية لا غاية وراءها وهذا فضلهم . غير انهُ من الثابت ان هذا الميدان محدود وان من اراد ان يبدع فيه اضطر الى ركوب الغريب المكروه وهو الذي يتحققهُ كل متأمل في آداب المتأخرين فاذا وصلت الصناعة الى التنافس بالتعابير الغريبة فثمّ انّها ماتت لانّها تصبح جسمًا بلا روح

ثم في اعلاء شأن التعبير وحصر البلاغة فيهِ مفسدة اخرى . يظن المنشئ ان استعمال البيان والبديع لكل معنى من ضروريات البلاغة حتى ان الكلام لا يُعدّ بليغًا اذا كان عاريًا منها . هذا الذي حمل احد الادباء المنتقدين على ترجمة الالياذة الى قول استغربناه في اول الامر وهو ان اقوال الالياذة ليست شعريّة . ولكنّا الآن لا نستغرب انتقاد هذا الاديب لانهُ مطابق كل المطابقة للمبادئ التي تلقّنها من كتب الاصول البيانيّة عن وجوب الاشكال البيانيّة والبديعيّة في كل بيت من الشعر وكل فقرة من النثر . غير ان هذا الوهم فاسد لان الكلام قد يكون بليغًا مثيرًا للعاطفة الشعريّة « مخيّلًا » ولا يكون فيهِ من البديع والبيان الّا القليل مثل الالياذة . فالكل يحكمون لها بسموّ المنزلة في الشعر ومن مميزاتها السذاجة في التعبير . واذا اردت شاهدًا آخر قريبًا منك خذ سفر التوراة وتصفّح رواية يوسف او اقرأ مثل الابن الشاطر في الانجيل لوقا ثمّ احكم

هذا في الانحاث التي تركها البيانيون والاساس الذي وضعوه لقواعد البلاغة .

ولبثت هذه القواعد نفسها ان اعتبرناها الآن خالية من الشوائب. لا اتكلم عن علم المعاني لانهُ كما قلت ملحق بعلم النحو اكثر مما هو فرع لفنّ البلاغة فالكلام اذًا عن البيان والبديع. امَّا البيان فعندنا انهم ليسوا بمصيبين اذ لا يعتبرون لهُ فائدة سوى تفاوت الوضوح في استعمال طرقه المختلفة. لان التشبيه والاستعارة وانواع المجاز والكناية ليس الغرض منها الايضاح او الاخفاء انَّما الغرض منها كسو المعاني الروحية جسمًا خياليًا اذا عُرض على القارئ او السامع ولج نفسه من باب مخيَّلته واثر فيها تأثيرًا شديدًا وذلك لان الانسان ليس روحًا مجردًا يكتفي بالمعاني المجردة انَّما هو روح في جسد اعني روحًا ذا قوى مشتركة بين الروح والجسم وهي المخيَّلة والحس فاذا رمت من نفس سامعك انفعالًا شديدًا فاجعل كلامك مؤثرًا في كل قواه الروحية والحسية والمشتركة ولذلك ان زدت على الصور البيانيَّة عذوبة الالفاظ وايقاع الاوزان كان الكلام — وهو الشعر — بالغًا النهاية في اسباب التأثير. وكذلك لا نستصوب اعتبارهم للبديع اذ جعلوه حلية للكلام لا تزيده الَّا حسنًا عرضيًا يُستغنى عنهُ. خذ البديع المعنوي مثلًا وقل لي كيف يمكنك الاستغناء عن جملة من اشكاله مثل المتاف وتجاهل العارف والاستفهام الخ اذا كانت الحاجة تدعوك الى استعمالها. كيف يمكنك ترك المتاف ان اختلجت في صدرك العواطف واضطرمت نيران الاهواء؟ أما ترى ان المتاف امر طبيعي لا شكل صناعي؟ وكذا قل عن باقي الاشكال

امَّا البديع اللفظي فلا اهميَّة لهُ الَّا الذي ذكرناه آنفًا عن مقبول الالفاظ والاوزان ولذلك ينبغي ان لا يقدم عليهِ الكاتب او الخطيب عمدًا والَّا وقع في هوَّة التصنع والتكلف واشتغل بالوسطة عن الغاية ولذلك كان الاكثار من تعديد اصنافه في المؤلفات بدعةً للضالالة في استعمالها ومعثرة في سبيل المتأدبين الاحداث.

غير ان العيب الفاحش سواء كان في البيان او البديع انَّما هو تعداد الاشكال البيانية او البديعيَّة وتقسيمها وتفصيلها وتحليلها الى ما لا نهاية وراءهُ. فقل لي ناشدتك الله ما الفائدة من كل هذه الاشكال؟ أتظن ان الشاب اذا فهمها كلها اصبح قادرًا على التأليف؟ لا لعمري. انهُ يعجز عن دقة في النظر واستعداد للفلسفة لا عن مقدرة على البلاغة لان الصناعة مجموع قوانين تساعد على العمل ليس الَّا. والحال كيف يمكنك ان تعي في صدرك مائة او مائة وخمسين نوعًا وتميزها ولا تخلط بينها؟ وهَبْك

حفظتها اظن انك تستطيع ان تنتبه الى وضع كل منها في مكانه وتشتغل مع ذلك بالمعاني ؟ ذلك من المحال وان فعلت كان كلامك تافهاً ليس فيهِ من البلاغة مسحة كما تراه في كل البديعيات. والصواب في ذلك ان ترشد المنشئ الى بعض الاصول القلائل وتعلمه اذا اراد النظم ان يستعين بكل قواه العقلية والخيالية والحسيَّة فيخرج الكلام محلًّى بانواع البيان والبديع عفوًا بلا تعمُّد ولا تصنع. وان قلت ان تعداد اشكال البيان يشحذ القرائح اجبنا ان ذلك لو صحَّ كان مقبولًا في سالف الاعصر حيث كانت البضاعة العلميَّة قليلة والوقت موفورًا ولكنهُ في زماننا خسارة وقت ثمين لا محالة

هذا ما نراه في اصول البلاغة المدرسية عند العرب استخرجناه من كتب البيانيين ولم نعتبر تأثيره في مؤلفات الشعراء والخطباء. تاركين هذا البحث لمقالة اخرى. ويهمنا قبل ذلك مقابلة بين المذهب المدرسي الذي بحثنا عنهُ ومذاهب المتقدمين من البيانيين كابن قتيبة وابي الهلال العسكري وابن رشيق وعبد القاهر الجرجاني والرازي وابن الاثير الذين وصلت الينا مؤلفاتهم. فان ساعدتنا الظروف وصفناها ان شاء الله

الآداب العربية

في القرن التاسع عشر

بحثٌ تاريخي انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

مشاهير المسلمين (تابع)

(الاخوان عبد الله وعبد الباقي) وفي هذه المدة قضى اثنان من الالوسيين نحبهما في العراق. وهما ابنا السيد العلَّامة شهاب محمود افندي الالوسي الذي سبق لنا تعريف فضلهِ (المشرق ١١ : ٢٧٣) اعني عبد الله وعبد الباقي. فالسيد عبد الله بهاء الدين افندي ولد سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) وقال السيد عبد الغفَّار الاخرس مؤرخًا لمولدهِ:

لبيك يا نحرير اهل زمانهِ ويا كاملًا عنهُ غدا الطرفُ قاصرا

بطفلٍ ذكيّ قد اتاك وانما يضاهيك بالاخلاق سرًّا وظاهرا
وبشّرتني فيهِ فقلتُ مؤرخًا بمولد عبد الله نلتَ البشائرا

فلمّا ترعرع اخذ العلوم عن والدهِ الى ان أُصيب بوفاتهِ وهو اذ ذاك ابن اثنتين وعشرين سنة فجزع لموتهِ وكاد لحزنهِ يلحق بابيهِ. ثم انكبَّ على الدرس واجتمع ببعض افاضل وطنهِ فما لبث ان فاقهم واقبل على التدريس فحصل بهِ على شهرة واسعة وانتظم في سلك اهل الطريقة النقشبنديّة. ثم وُلي بانواع الاسقام فخرج من وطنهِ قاصدًا الاستانة العليّة لكنَّ اشقياء العربان نهبوا اثقالهُ فعاد الى بغداد صفر اليدين. وفي آخر امرهِ تولّى القضاء في البصرة فاكرمهُ اهلها وعرفوا قدرهُ لولا انهُ تأذّى بحمّياتها القتّالة فخرج منها بعد سنتين ولسان حالهِ ينشد مع معاصرهِ الشيخ صالح التميميّ:

ومتى تسيرُ ركائبي من بلدةٍ ابدًا اقام فنازلًا بفنائها
لا ترتجي بين شمائلها رجا وقبولها ودُبورها وصبائها
ما ان تحرّكت الغصونُ بارضها الّا تحرّك في الجسوم اذاها
اشجارها خضرٌ واوجهُ اهلها صُفرٌ كما كشفُ السقام جباها
لولا قضاء الله حتمٌ واجبٌ أبتِ المروّة ان ادوسَ ثراها

فما وصل الى بغداد حتى مات بعد أيّام ١٢٩١ (١٨٧٤) ولهُ من العمر ٤٣ سنة وكان السيّد عبد الله كثير التدثّين لين الجانب محبًّا للفقراء لا يأنف من مخالطتهم وقد امتاز بحسن نثرهِ وجزالة تعبيرهِ. ومن تآليفهِ رسائل ومقالات مفيدة وشروح في علمي المنطق والبيان وألّف كتاب الواضح في النحو وكتابًا في آداب الصوفيّة

امّا اخوهُ فهو السيّد سعد الدين عبد الباقي وقع مولدهُ سنة ١٢٥٠ فأرخهُ الشاعر عبد الحميد الاطرقجيّ:

طربًا بمن سرّ الورى ميلادهُ وسرى نسيمُ اللطفِ في الآفاقِ
يا سادتي بشراكمُ فيمن بدا متخلّقًا بمكارم الاخلاقِ
فردًا أتى وبهِ استنتُ مؤرخًا تمّ السرورُ لكم بمبد الباقي

اخذ عن والدهِ كأخيهِ ثمّ عن الشيخ عيسى البنديجيّ وزار الحجاز وتولّى القضاء في كركوك مركز ولاية شهرزور ثم في مركز ولاية بتليس وسافر الى دار السعادة ولهُ عدّة مصنّفات اخصُّها القول الماضي فيما يجب للمفتي والقاضي واوضح منهج في مناسك

الحجّ الذي طُبع في مصر واسعد كتاب في فصل الخطاب وغير ذلك ممّا يشهد له برسوخ القدم في المعارف. توفي في مصر سنة ١٢٩٨ (١٨٨١)

(ابو النصر عليّ) واشتهر في مصر في هذه الحقبة الاديب المصري ابو النصر عليّ ولد في متظوط وفيها كانت وفاتهُ سنة ١٢٩٨ (١٨٨٠—١٨٨١) نظم الشعر في مقتبل الشباب واصبح من فرسان ميدانهِ فلما خبرهُ الى خديوي مصر اسماعيل باشا قدّمهُ واجازهُ ولابي النصر عدّة قصائد غرّاء فيهِ وفي امراء الدولة الخديويّة وقد رافق اسماعيل باشا لمّا رحل الى الاستانة ثم مدح بعدهُ الحضرة التوفيقيّة. ولابي النصر ديوان كبير طُبع في مطبعة بولاق سنة ١٣٠٠ ضمّنهُ اقوالاً منتخبة في كل ابواب البلاغة ومعاني الشعر فممّا استحسناهُ قولهُ في الخمر وقد نحا في وصفهِ طريقة الصوفيين:

رُبَّ كرمٍ دوحها بنتُ الكرامْ وهي بكرٌ زفّها ساقي المدامْ
شمسُ راحٍ في اصطباحٍ اشرقت في سماء الكاس كالبدر التمامْ
كم تجلّى كأسُها من لؤلؤٍ من حُبابٍ كالكواكب في انتظامْ
انّ لي عنها حديثاً سرّهُ لا يُضاهى وهي لي اقصى المرامْ
لو درى اهلُ التقى اسرارها لسقوا ابناءهم قبل الفطامْ
لا تلمني عن معانيها وسَلْ عن حُلاها وسناها باحتشامْ
قال صفها قلتُ دَعْني انّما صورةٌ كالجسم ضدي والسلامْ
قال زدني قلتُ ما المسئول من نفسها بادرى منها يا هذا الغلامْ
قال قل في كرمها مخلوقةٌ ترعةٌ للناس من سامٍ وحامْ
ما رآها عابدٌ الاّ انثنى عن سجودٍ وركوعٍ وقيامْ
راحةُ الارواحِ في اقداحها انباتنا انّما تُبري السقامْ

وهي طويلة. ومن حسن شعرهِ قولهُ يصف سفر الحضرة التوفيقيّة الى الصعيد سنة ١٢٨٧:

زار في موكبٍ كعقد اللآلي فازدهى بالقدوم صفو الليالي

الى ان قال:

فازدهى رونقُ الصعيد جمالاً وتملّت ارجاؤهُ بالجلالِ
وروى النيلُ من رُواهُ حديثاً يشرحُ الصدر شرحهُ في المقالِ
حيث دُقّت بالشاطئين طبولٌ والاهالي تفوقُ عدّ الرمالِ
وتلاقوا بضُمّرٍ سابقاتٍ تترى الليث فوق ظهر النزالِ

وتوالوا في سيرهم فاضاءت حليةُ البيض بين سُمر العوالي
وجميعُ البلادِ ابدت سروراً ناشراتٍ أعلامها بابتهالِ
حلَّ في منيةِ المصيب فسُرَّت وتقوَّى ساطانُها بالكمالِ
زار في مغلوط بيت امير زادهُ رفعةً بحسن احتفالِ
وباسيوط لا تسَلْ حين وافى عن بلوغ المنى وقبض السؤالِ
ويُمدن الصعيد ما زال برقى بدرُ تشريفهِ بلطف انتقالِ
نسألُ الله عصمةً ونجاحاً وبقاء لهُ وحسنَ مآلِ
وثنائي عليهِ اوَّل فرضٍ والوفا بالثناء فرضُ عيالِ

ومن اقوالهِ يعاتب دهرهُ:

إلامَ تصوّبُ الاوهامُ غيًّا وتنشرُ ما طواهُ الرشدُ طيًّا
وفيمَ تقودُنا الأطماعُ طوعاً الى ما يُغضب الحرَّ الابيًّا
وحتّامَ التشوُّفُ للمعالي وما مرَّ الشجاعُ السهريًّا
أبعد الحقّ تُنتظَر الاماني ويُفرَضُ ميّت الآمالِ حيًّا
اذا كنّا مع الاحياء موتى فيا لحقُ الاموات هيّا
شربتُ من الأسى عَلَلاً ونَهلا فزدتُ صدًى وما ألفيتُ ريًّا
وكم جبتُ المهامهَ كي ألاقي بُنتَجي جواداً او تقيًّا
فذاك اراهُ محتالاً فخوراً وهذا قصدهُ يدعى وليًّا
كأنَّ ذوي التُّقى ماتوا جميعاً وان الله لم يخلق سخيًّا
وكم طفتُ البسيطة لاختبارٍ فلم ارَ في الورى خلًّا وفيًّا
فمهلاً عاذلي عذري والاَّ فقُلْ ما شئتَ واهجرني مليًّا
ألم ترَ ان للدهر اجتراء على من ظنَّهُ فطناً ذكيًّا
يجرّعهُ على مُضَضٍ كؤوساً ويكتبهُ بلا سببٍ شقيًّا
وربَّ جهالةٍ افضت لعزٍّ وعلمٍ اورث الذلَّ الرديًّا
وكم من ماجدٍ عانى خطوباً ومن شكوى الزمان غدا بريًّا
فلا تعجب وُقيتَ الشرَّ وانظرْ تجدْ ربَّ البلاغةِ سيّءَ حيًّا
ومَنْ في الناس ليس لهُ خلاقٌ يقابلُ بالمهابةِ اذ يحيًّا
فكنْ رجلاً لهُ في الارض رجلٌ وهامةُ عزّهِ فوقَ الثريّا
فاني لستُ مبتغياً حياةً تُبدّل صُبحَ افكاري مسيًّا
ولا ارضى مساكنةً بضيمٍ أيرضى الضيمَ من يُدعَى سريًّا
سأركبُ صارماً وامزُّ رمحاً واغمدُ في الرؤوس المشرفيًّا
واخترقُ الصفوف ولا أُبالي اذ مدَّ الحِمامُ يداً الليًّا

ولابي النصر رحلتان الى القسطنطينيّة كانت الاولى في ايّام السلطان عبد المجيد

موفدًا من محمَّد عليّ الكبير وانشد حينئذٍ شيخ الاسلام قولهُ يمدح القسطنطينيَّة:

وكنَّا نرى مصر السعيدة جنَّةً ونحسبُها دون البلاد هي العليا
فلمَّا رأت دارَ الخلافة عينُنا علمنا يقينًا انَّها لمَّ الدنيا

وكانت رحلته الثانية مع الخديوي اسماعيل باشا وصادف دخولهما الاستانة يوم جلوس السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٩ (١٨٧٢) فقال ابو النصر يمدح الحضرة السلطانيَّة بقصيدة مطلعها:

تبسَّمت الازهارُ عن لؤلؤ القطر فتاح شذاها في الحدائق كالنشر

ومنها في مدح السلطان:

افادَ العلى جاهًا وعزًّا مؤبَّدًا وألبسها من مجده حلل الفخر
وابدى لأعلام التقدُّم مظهرًا بهِ ناكسٌ ملوٍ على دولِ الدهر
واحيا لاحياء العُلى كلَّ دارسٍ فاضحت قلاع الشر باسمة الثغر
وجدَّد في عهد قريبٍ بواخرًا بها قوَّةُ الاسلام محكمةُ الامر
برونقها تكسو القفار مهابةً وتعلو بها حازت على الانجم الزُّهر
لهُ من رجال الحرب جيشٌ عرمرمٌ لهم همَّمٌ في الفتك بالبيض والسمر
مدافعهم شمُّ الانوف على العدى تخرُّ لها شمُّ الجبال من الصخر
واسيافهم في السِّلم تعلو صيالُها متى جُرِّدت مالت الى القطر بالنصر

وختمها بهذا التاريخ:

وها انا في البُشرى اقولُ مؤرِّخًا جلوسُكَ عيدُ الدهر ام ليلة القدر

(محمود صفوت) ومن معاصري ابي النصر علي وطنيُّهُ محمودُ افندي صفوت بن مصطفى اغا الزيلع الشهير بالساعاتي ولد بالقاهرة سنة ١٢٤١ وبها توفي سنة وفاة ابي النصر ١٢٩٨ (١٨٨١) لزم الآداب واشتهر بنظمهِ ونثرهِ حتى عُدَّ فيها من المقدَّمين. وتوجَّه الى الحجاز ودخل على امير مكة فاكرم مثواهُ وابقاهُ عندهُ مدَّةً ثم عاد الى وطنهِ وفيهِ قضى بقيَّة حياتهِ. ولمحمود افندي صفوت ديوان شعر مخطوط في الكتبخانة الخديويَّة لم يُنشر بالطبع. فمن ذلك قولهُ يفتخرُ:

ولم الزمانُ واهلهُ بعداوتي انَّ الكرام لها اللئامُ عداه
أغطُّ قدري الحادثاتُ وهمَّتي من دونها المرِّيخُ والجوزاه
هيهات تهضمُ جانبي وعزائمي مثل البواتر دأبُها الامضاه
صبرًا على كيد الزمان فانَّما يبدو الصباحُ وتنجلي الظلماه

ولهُ في رثاء عالم:

بكت عيون الهدى وقطّعت الرُّتَبُ ... ومزّقت شملها من حزنها الكُتُبُ
ونكّست رأسها الاقلامُ باكيةً ... على القراطيس لمّا ناحت الخطبُ
وكيف لا وسماء العلم كنت بها ... بدرًا تماماً فحالت دونك الحجبُ
يا شمسَ فضلٍ فدتك الشهبُ قاطبةً ... اذ عنك لا انجمٌ تُغني ولا شهبُ
لمّا اصابك لا قوسٌ ولا وترٌ ... سهم المنيّة كاد الكون ينقلبُ
ما حيلة العبد والاقدارُ جاريةٌ ... السرُّ يوهَبُ والاقدار تنتهبُ

(صالح مجدي بك) وفي السنة ذاتها ١٢٩٨ (١٨٨١) توفي أديب آخر من نوابغ كتبة مصر السيّد صالح مجدي بك. ولد في ابي رجوان من مديريّة الجيزة سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦) وبعد ان تلقّى مبادئ العلوم العربيّة ودرس اللغة الفرنسويّة الحقهُ استاذهُ رفاعة بك الطهطاوي بقلم الترجمة ثم عهد اليهِ تدريس اللغتين العربيّة والفرنسويّة في المدرسة الهندسيّة الخديويّة وعهدوا اليهِ تعريب كتب علميّة للفرنج فعرّب منها عددًا وافرًا في رسم الامكنة والطبقات الجيولوجيّة والميكانيكيّات والحساب والجبر والهندسة والفلكيّات والفنون الحربيّة كبناء الحصون ورمي القنابل الى ان تولى رئاسة الترجمة وجعلهُ اسماعيل باشا في المعيّة السنيّة وولّاهُ مناصب أُخرى وكان آخر ما عُهد اليهِ قضاء القاهرة فلزمهُ الى وفاتهِ. وكان صالح بك يحسن الانشاء وفنون الكتابة وقد نشر مقالات عديدة اجتماعيّة وسياسيّة وادبيّة في جرائد مصر كروضة المدارس والوقائع المصريّة. واشتغل بتأليف مطول لتاريخ مصر مع علي باشا المبارك ولهُ ديوان شعر واسع طُبع في بولاق سنة ١٣١٢

ومن شعر السيد صالح بك مجدي قولهُ سنة ١٢٨٩ يهنّئ جناب الخديوي اسمعيل باشا عند رجوعهِ من الاستانة:

مع النصر وافى مَن عليهِ المعوّلُ ... ومن هو في ايّامهِ النرُّ اوّلُ
ومن هو للاوطان والملك والملا ... ملاذٌ وحصنٌ لا يُرامُ وموئلُ
ومن تلألأ الدنيا بهابتهُ التي ... بها الاسدُ في آجامها تتجدّلُ
ومن فاض من يمناهُ ماء سماحةٍ ... فأحيا بلادًا اهلها قد تولّوا
ومن شاد اركان المعالي جميعَها ... يقصّرُ عن ادراكها متطوّلُ
وقد جاءت البشرى بذاك فزيّنت ... لمقدمهِ مصرٌ وفازَ المؤمّلُ
وانّك على دار الخلافة عندما ... رأتهُ بها يعلو وشانيهِ يسفلُ

فعش ما تشا في دولة انت ربّها وعبدك فيها من قديم مؤثّلُ
وقد قلتُ في يوم القدوم مؤرّخاً الى مصر اسمعيل بالبشر مقبلُ

وقال من قصيدة يهنئهُ بها في اوّل العام:

بالبشر في مصرَ لاحت غرّةُ العامِ ترهو بنورِ مليكٍ للحمى حامِ
ترهو بنورِ مليكٍ غيثُ راحتهِ في الكون طول المدى بين الورى هامي
هو المُدَيْنُو الذي اوطانهُ نشرت للفضل في مصرهِ مطويّ أعلامِ
وللتمدُّن مدّت باعها والى اوج العلى سارعت من غير احجامِ
فيا لهُ من حكيم بالعلاج عما كان في جسمها من فرط اسقامِ

ولهُ في حسين باشا ناظر المعارف والاوقاف والاشغال العموميّة:

لجنابك العالي ثلاثُ مصالحٍ نُظمتْ بسطرٍ عسجدٍ ولُجَيْنِ
واضاء منك جبينُها برئاسةٍ اعمالُها منشورةُ العاَمَيْنِ
وغت بها بركاتُ اوقافٍ روت مصرًا وقد ظامت على الحرمَيْنِ
ويجزمك الاشغالُ زاد غُباهما وفجاؤها في السهل والجبلَيْنِ
ولك المعارف غرّدت ابناؤها بمدائح الاجداد والابوَيْنِ
وبديعُ نظمٍ كامل في كاملٍ من مخلصٍ بالقاب والشفتَيْنِ
من مخلص لك في الثناء بدولةٍ اضحيت فيها حائزَ الشرفَيْنِ

وختمها بهذا التاريخ:

والمجد في عليائك قال مؤرخاً زمنُ المعارف مُشرقٌ بحُسَيْنِ (١٢٨٩)

(ابو السعود افندي) ومن مشاهير ادباء مصر في ذلك الوقت ابو السعود افندي عبد الله المصري ولد سنة ١٢٤٤ (١٨٢٨) في دهشور قرب الجيزة ودرس في المدرسة الكلّية التي انشأها محمّد علي باشا في القاهرة فبرع بين اقرانهِ. ثم ندبتهُ الحكومة الى نظارة اعمالها فكان في وقت الفراغ يواصل دروسهُ ويكفّ على التأليف شعرًا ونثرًا. وحرّر مدّة في جريدة وادي النيل وكاتب أدباء زمانهِ. ونقل بعض كتب الفرنج الى العربيّة. ومن تآليفهِ كتاب منحة اهل العصر بمنتقى تاريخ مصر نظم فيهِ بجمل حوادث تاريخ مصر للجبرتيّ ووضع تاريخًا لفرنسة الحقهُ بتاريخ ولاة مصر من اوّل الاسلام دعاهُ بنظم اللآلي. وباشر بترجمة تاريخ عامّ مطوّل وسمهُ بالدرس التامّ في التاريخ العامّ طُبع منهُ قسمٌ سنة ١٢٨٩. وكان ابو السعود

شاعرًا مجيدًا لهُ ديوان شعر طُبع في القاهرة اودعهُ كثيرًا من الشعر كالمديح والمراثي والفراقيّات . ونبغ في المنظومات المولّدة كالواليا والموشّحات . ولهُ ارجوزة نظم فيها سيرة محمّد علي باشا كثيرة الفوائد بلغت المقاصد تبلغ عشرة آلاف بيت . ولهُ غير ذلك ممّا تفنّن فيهِ وسبق آل عصرهِ توفي ابو السعود افندي في ربيع الاوّل سنة ١٢٩٥ (١٨٧٨) . وقد رثاهُ احد شعراء وطنهِ بقصيدةٍ قال في مطلعها :

خُلق الهبوطُ مع الصعودْ ومع القيامِ بدا القعودْ

الى ان قال :

لبس البكاءُ لسادةٍ ابدت لفرهما السدود
لكنّهُ لمّا قضى ربُّ القريضِ ابو السعودْ
من لم يجدْهُ بدمعهِ فكأنّما نقض العهودْ
فهو الحريُّ بان تذو بَ عليهِ بالاسفِ الكبودْ
بحرٌ تدفّق ماؤهُ لكنّهُ عذبُ الوروْدْ
بقريحةٍ سالت على ارجائها سَيْلَ العهودْ
كم انتجتْ نُجَبًا لهُ فكأنّما الامُّ الوَلودْ
ابدًا توقّدُ بالذكا ء فليس يبروها خمودْ
نشبتْ مخالبها المنيّـ ـةُ فيهِ وهو من الاسودْ
لا غروَ ان صعدَ السما . بين الملائكة السجودْ
فبناتُ نعشٍ قد حمـ ـلنَ سريرهُ لمن الشهودْ

(الحاج حسين بَيْهم) وفي آخر هذه الحقبة في صفر من سنة ١٢٩٨ (٢٤ كانون الثاني ١٨٨١) فقدت الآداب احد اركانها في بيروت وهو الحاج حسين ابن السيد عمر بَيْهم كان والدهُ عمر من اعيان المدينة وادبائها رثاهُ الشيخ ناصيف اليازجيّ سنة وفاتهِ ١٢٧٦ (١٨٥٩) بقصيدة مطلعها :

زُرْ تربةً في الحمى يا ايّها المطرُ وقُلْ عليكَ سلامُ اللهِ يا عُمَرُ

ومنها :

في شخصهِ الدين والدنيا قد اجتمعا وذاك يندرُ ان تحظى بهِ البشرُ

ولد حُسين ابنهُ سنة ١٢٤٩ (١٨٣٣) ونشأ حريصًا على تحصيل مسائل العلم وفنون الادب فاخذ عن علماء مأتهِ كالشيخ محمّد الحوت والشيخ عبد الله خالد . وبعد ان تعاطى التجارة زمنًا يسيرًا انقطع الى العلم ونال بهِ شهرةً ثم نظم الشعر فصارت لهُ

به ملكة راسخة بحيث كان يتولهُ ارتجالًا في المحافل ويخرجهُ على صور مبتكرة تطرب لهُ الاسماع. وقد ولَّتهُ الحكومة عدَّة مناصب كنظارة الخارجيَّة ورئاسة الاحكام العدليَّة ثم أُعيدت اليهِ الخارجيَّة فقال في ذلك:

انَّ الفؤاد لهُ في الملك معرفةٌ فالخارجيَّةُ لم تترك نظارتهُ
لذاك سلطاننا المنصور ردَّ لهُ مع حسن انظارهِ ارّخ بشاشتهُ

ولمَّا وُضع القانون الاساسيّ وفُتح للمرَّة الاولى مجلس النوَّاب انتخبهُ مواطنوهُ ليمثلهم فيهِ فحضر في الاستانة جلساتهِ ثم عاد الى وطنهِ واعتزل المأموريَّات وانقطع الى الآداب. وكان حاضر الجواب ثاقب الرأي كريم الاخلاق عالي الهمَّة محبوبًا عند الجميع. وكان احد اعضاء جمعيَّة العلوم السوريَّة المُنشأة في بيروت ولمَّا توفي رئيسها الاوَّل الامير محمَّد ارسلان عهدوا اليهِ رئاستها. وكان للحاج حسين نظمٌ رشيق مطبوع قد بقي منهُ القليل ومن آثارهِ رواية ادبيَّة وطنيَّة مُثلت مرارًا وقرَّظها الادباء. ومن شعرهِ قولهُ في تاريخ جلوس السلطان عبد العزيز سنة ١٢٧٧:

خلافة الاسلام قد اصبحت تزهو افتخارًا بالمليك العزيز
وملَّة الايمان ارَّخها ظابت بشاهنشاه عبد العزيز

وقال مؤرخًا انشاء التلغراف في بيروت:

قد درُّ السلكِ قد ادهشت عقولنا لمَّا على الجوّ ساق
فأعجب الكون بتاريخهِ شبيهُ برقٍ او شبيه البُراق (١٢٧٧)

وقال مشطرًا:

اذا العنايةُ لاحظتك عيونها وحباكها من فضلهِ الرحمانُ
نادالك طائرُ يُمنها وسعودها ثمَّ فاخاوف كلهنَّ امانُ
واصطَدْ بها العنقاء فهي حبالةٌ واملك بها البيداء فهي سنانُ
واصعد بها الظباء فهي معارجٌ واقتَدْ بها الجوزاء فهي عنانُ

وقال يهنّئ حضرة كامل باشا بمستشاريَّة الداخليَّة سنة ١٢٩٦

حينما أعوز المالكَ اصلا حٌ وسُدَّت عن وارديهِ المناهلْ
وفَّق الله للوظائف قومًا ملكوا من ذرى الكمال المنازلْ
فتفاءلْ بالمجدِ صاحِ وأرّخْ مستشارًا امسى محمَّدٌ كاملْ

ومما رُثي بهِ الحاج حسين افندي يبهم قول ابي الحسن الكسيّ:

فراقُكَ صعبٌ يا حسين احتمالهُ وبعدك رَكْبُ الانس شالت رحالهُ
رحلتَ الى دار البقاء مكرَّمًا وشأنكَ مولى النعيم مآلهُ
ولكن تركت القوم تبكي عيونهم عليك بدمعٍ كالسيولِ انهمالهُ
وليس لنا من بعد فقدك حيلةٌ سوى الحزنِ او صبرٍ يزُفُّ ثالهُ
حويتَ خصالاً لا جلَّ في الناس قدرُها وما كلّ انسانٍ يجلُّ خصالهُ
عفافٌ ومعروفٌ وعلمٌ ورقّةٌ ونضلٌ ومجدٌ قلَّ فينا مثالهُ

ومن جيّد شعرهِ قولهُ يعزّي صديقًا بفقد مالهِ:

لقد غمَّنا والله والصحبَ كلَّهم مصابٌ دهاكم بالقضا حكم قادرِ
كانَّ شرارًا منهُ طار لارضنا فاحرق احشاء الورى بالتطايُرِ
ولكنَّنا قلنا مقالةَ عاقلٍ يسلّم للباري بكل المظاهرِ
اذا سلمتْ هامُ الرجالِ من الردى فما المالُ الّا مثل قصّ الاظافرِ
فكن مثل ظنّ الناس فيك متابلًا لذا المطب بالصبر الجميل المصادرِ
ولا تأسفن اذ ضاع مالٌ ومنتنى فربُّكَ يا ذا الحزم اعظمُ جابرِ
وانَّ حياةَ المرْ رأسُ لمالهِ سلامتهُ تعلو جميع الخسائرِ

(محمّد اكنسوس) ومِمَّن رُزئت بهِ الآداب في هذا الوقت في بلاد المغرب الاديب الشاعر ابو عبد الله محمد بن احمد اكنسوس المراكشي توفي في بلدهِ مرّاكش سنة ١٢٩٤ (١٨٧٧) وقد عُرف المذكور بسعة معارفه لاسيما التاريخيّة والادبيّة ولهُ التاريخ المسمّى كتاب الجيش وقصائد عديدة في مشاهير بلادهِ من ذلك قولهُ يرثي سلطان مرّاكش المولى عبد الرحمن المتوفى سنة ١٢٧٦ (١٨٥٩):

هذي الحياةُ شبيهةُ الاحلامِ ما الناسُ ان حقّقتَ غيرُ نيامِ

ومنها:

لو كان ينجو من رداها مالكٌ في كثرةِ الانصار والخدّامِ
لنجا امير المؤمنين ومن غدا اعلى ملوك الارض نجل هشامِ
خير السلاطين الذين تقدّموا في الغرب او في الشرق او في الشامِ
يا مالكًا كانت لنا ايّامهُ ظلًّا ظليلًا دائمَ الاتمامِ
لا ضَيْر انك قد رحلتَ مبيّنًا دار الهناء وجنّة الاكرامِ
فلك الرضى فانعم بما أعطيتهُ ولك الهناء بنيل كل مرامِ

وقال يصف خروج السلطان المولى حسن على اعداء دولتهِ سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦):

عصفتَ عليهم بالبأسِ تُرجي كتائب كالسحابِ اذا تلوحُ

فالقيتَ الجرانَ على ذراعٍ بجيشٍ كلُّهم بطلٌ مشيحُ
فجاء العفو منك وهم ثلاثٌ اسيرٌ او كبيرٌ او ذبيحُ
وقد قُسمتْ بلادهمُ بعدلٍ وذوروهمُ كما قُسمَ الوطيحُ
فلا تحلمْ بان الجرحَ يُكوى طريًّا بالمحاور او يقيحُ
ابا زيدٍ اذا تُبقي عليهم بصفحٍ ربَّما ندم الصفوحُ

ولهُ يصف بستانًا للوزير ابي عبد الله محمّد ابن ادريس :

يا مترلًا قد خصَّصَتْهُ سعادةٌ واستبدلتهُ انعمًا من أبؤسِ
اصبحتَ مأوى للوزير محمّدٍ نجل الادارسةِ الكرام الخرسِ
انسانُ عينِ الكونِ من لبست به رُتب العلى ابهى واصبح ملبسِ
يا ايُّها البحر الذي من فيضهِ كلّ الاماني والغنى للسغلسِ
يحميك ذا القصرُ الذي اشأتهُ بالسعد في عام انشراح الانفسِ
لا زالَ تشرق من مطالع سعده كالبدر يظهر من خلال الحندسِ
والدهر يخدم جانبيك ويجتبي بجلالكَ العالي الاعزّ الاقدسِ (لهُ بقيّة)

الالفاظ السحريّة

نظر للأب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

٢ المساواة

قرّبنا من شفتيك كأس الحريّة فذقت حلوها ومُرّها وعرفت انّ خُمارها ربّما مُزجت بخمرها والعاقل من تتبّع خيرها وتجنّب شرّها. فدعنا الآن نمحص لفظة ثانية بنار الانتقاد لم نعهدها سابقًا في افواه الشرقيين فدارت اليوم على ألسنة الناس فكادوا يشاون من طيب عبيرها. تلك كلمة « المساواة » يردفونها بلفظة الحريّة ويبنون عليها آمال سعادتهم الارضيّة

فما قولنا بالمساواة ؟

لا مرية انّ البشر من حيث طبيعتهم متساوون يكوّنهم الله اجنّةً ثم يخرجهم من قبور احشاء أمهاتهم بالعري والضعف وينشأون بين الاوجاع الى ان يبلغوا سنّ الحداثة ثم الشباب ثم الكهولة ثم تأخذ قواهم بالانحطاط وتحدق بهم بلايا الشيخوخة